

الرسالة

تصدرها
جمعية الدراسات القبطية
نيوجرزي - أمريكا

سبتمبر ١٩٩١

العدد السابع

السنة العاشرة

الخلاص

بين الكاثوليك والبروتستانت والارثوذكس

أن تتلاشى صنعة الله بين البشر، إما بسبب إهمالهم أو بسبب غواية الأرواح الشريرة .. وما الفائدة من خلقتهم منذ البدء ؟ لأنه كان خيراً لهم لو لم يخلقوا من أن يخلقوا ثم يهلكون ويفنون . لأن الإهمال لا يعلن صلاح الله بل ضعفه .. لأنه أمر مشين جداً أن يفنى المخلوق على مرأى من الخالق .» (١)

إلا أن التطور الخطير في لاهوت الغرب بخصوص فهم الفداء أحدثه في أوائل القرن الثاني عشر القديس أنسلم أسقف كنتربري في كتابه «لماذا صار الله انساناً» . فقد شرح الخلاص - ليس على أساس الكتاب المقدس - بل على أساس القانون الروماني ، وعلى أساس النظام الإقطاعي السائد في عصره . ومع هذا فلا تزال نظريته المعروفة «بنظرية الترضية» تدرس في جميع أنحاء العالم ، رغم زوال عهد الإقطاع ، وتغير التشريعات والقوانين . ولم تكن نظرية أنسلم سوى تطور طبيعي لتفكير الغرب الذي انشغل بخطيئة الانسان ، واعتبرها إهانة لله واعتداء على شرفه . وقد نظر أنسلم إلى السيد المسيح كبديل للبشرية ، وإلى سفك دمه على الصليب كأساس للخلاص أن لم يكن العمل الخلاصي الوحيد ، باعتبار أن موت المسيح كان ذبيحة كفارية كافية لترضية الأب عن خطايا العالم كله . لقد دفع المسيح الغدية (مت ٢٠ : ٢٨ ، مر ١٠ : ٤٥) للأب ، وبذلك حصل على الغفران لجميع الخطايا (٢ كو ٥ : ١٩) . وحسب هذه النظرية أصبح التفسير الشائع لقول الرب على الصليب «قد أكمل» - أن الدين قد دفع ، والخلاص قد تم مرة واحدة وإلى الأبد (عب ٩ : ١٢ ، ١٠ : ١٤) . وقد زاد جون وزلي مؤسس المشوديست في القرن الثامن عشر بأن موت المسيح كان كافياً لارضاء الغضب الالهي على البشرية (رو ٥ : ٩) (٢) .

ورغم أن العالم المسيحي كله قبل نظرية الترضية كتفسير لعمل الله الخلاصي لاسيما وأن اللاهوتيين خلال أكثر من ثمانية قرون نجحوا في اثباتها بآيات كثيرة من الكتاب المقدس ، إلا أنها تمثل نقصاً خطيراً في مفهوم الخلاص كما أعلنه الكتاب المقدس وكما شرحه الآباء :

أولاً - نظرية الترضية المعتمدة على الفكر القانوني الغربي نجحت في تفسير غفران الخطايا ورفع العقوبة بذبيحة المسيح . إلا أنها لم تحل مشكلة البشرية الساقطة إطلاقاً ، لأن الخطية - كما يشرح

«المفهوم المسيحي للخلاص ليس هو مجرد وصايا أو تعاليم أو مواعيد . بل هو نزول الله واتحاده بنا . فالمخلص هو الله الذي اتحد بنا وبسير معنا»

الطوباوي القمص بيشوي كامل

على مر العصور اعترف المسيحيون على اختلاف مذاهبهم بالرب يسوع مخلصاً لهم . ولكن ماذا يعنون بذلك ؟ كان هذا الاعتراف تعليماً رئيسياً للمسيحيين في الأجيال الأولى . والكتاب المقدس في كل من العهد القديم والعهد الجديد يصف الله دائماً بأنه المخلص ، وخلاص الانسان لا يتم إلا بعمله الخلاصي (مز ٣ : ٨ ، ٥ : ٢٣ ، خر ١٢ ، فر ٤٤ : ٣ ، ٤ ، أش ٤٣ : ١١ ، ٦٠ : ١٦ ، ٦١ : ١٠ ، حب ٣ ، مت ١ : ٢١ ، لو ١ : ٤٧ ، ٦٨ ، ١٢ : ١١ ، عب ٣ : ١٦ ، ١٨ ، ٢ بط ١ : ١٠) .

الله هو المخلص ، ولكن كيف ؟ هذه هي المشكلة التي فصلت الآن بين الكنائس المختلفة ، ولكننا لا نراها كذلك في القرون الأولى . لأن الآباء في القرون الاربعة الأولى شرحوا الكتاب المقدس دون أن ينقسموا الى مدارس مختلفة أو يضعوا نظريات متضاربة للخلاص والكفارة كما نرى الآن ، والذي حدث نتيجة لمحاولة فهم الخلاص على أسس عقلية فلسفية ، ثم محاولة اثباتها بعد ذلك بآيات من الكتاب المقدس .

تطور مفهوم الخلاص في الغرب على مر العصور

وحتى منتصف القرن العشرين تأثر مفهوم الخلاص في جميع الكنائس شرقاً وغرباً ، من كاثوليك أو بروتستانت أو أرثوذكس ، بالتفكير الغربي الذي نظر الى الخلاص من ناحيته القانونية - كمشكلة قضائية بين الله والانسان ، ونستطيع أن نلمس بداية هذا التعليم في كتابات العلامة ترتليان في أوائل القرن الثالث . في حين أن الآباء الأولين نظروا إلى الخلاص كعمل الله المحب ، بل ومسؤوليته إزاء البشرية الساقطة . وفي ذلك يقول القديس أثاناسيوس الرسولي : «لأنه مما لا يتفق مع صلاح الله أن تفني خليقته بسبب الغواية التي أدخلها الشيطان .. وكان غير لائق على الاطلاق

ونستطيع أن نوضح التعليم البروتستاني ببعض اقتباسات :

«الرب يسوع بعد ما بذل نفسه وسفك دمه كفارة عن الخطية ، دخل بدم نفسه إلى قدس الأقداس . لذلك يشهد الله للمؤمن أن كل شيء قد انتهى وإن مسألته قد انحسرت نهائياً ... ولتعلم كل الذين يرتابون في غفران خطاياهم غفراناً إلهياً كاملاً أن ذلك يعد إنكاراً لكفاية ذبيحة المسيح ..

«وكم من الناس ينظرون إلى عمل الروح فيهم عوضاً عن النظر إلى عمل المسيح لأجلهم ، كأساس سلامهم .. فدم المسيح هو الذي يعطي السلام والتبرير التام ويظهر الضمير ويدخل بنا داخل الأقداس .. وعليه تتوقف بركان المؤمن وأفراحه في السماء (رو ٣ : ٢٤ - ٢٦ ، ٥ : ٩ ، أف ٢ : ١٣ - ١٨ ، كو ١ : ٢٠ - ٢٢ ، عب ٩ : ١٤ ، ١٠ : ١٩ ، ١ بط ١ : ١٩ ، ٢ : ٢٤ ، ايو ١ : ٧ ، رؤ ٧ : ١٤ - ١٧) ...

«عمل الروح القدس في الكنيسة لا يتم حتى يجيء الرب ، وعمله في المؤمن مستمر إذ يشفع فينا بأنات لا ينطق بها (رو ٨ : ٢٦) .. كما أن خادم إبراهيم لم يتم عمله في أثناء سفر رفقة ملاقات اسحاق إلا بعد وصولها إليه .. أما عمل المسيح لأجلنا فليس كذلك ، إذ هو كامل وتام بحيث حق له أن يقول «قد أكمل» ...

«الله قد تفرد بأمر الغداء .. وما كان علينا إلا أن نقف وننتظر خلاص الرب .. وبمجرد معرفة أنه خلاص الرب يدل على أن الانسان لم يكن له دخل فيه بالكلية .. هذا الخلاص لم يشترك فيه الانسان والا لما دعى خلاص الله . فكونه خلاص الله يقتضي أن لا يكون للانسان يد فيه .» (٣)

أين التعليم الأرثوذكسي ؟

كما سبق نلاحظ أن الكاثوليك والبروتستانت كانوا يجادلون من وجهة نظر واحد وهي الوجهة القانونية التي اشتركا فيها معاً . وقد تطرف كل منهما في ناحيته - لأن عقيدة الخلاص بالايمان وحده لا تقل خطأ عن عقيدة استحقات الأعمال الصالحة . والواقع أن تعليم الخلاص بالايمان لم يبدأ بالبروتستانت ، بل أخذوه عن القديس أوغسطينوس الذي في محاولته الرد على بلاجيوس الذي علم بحرية إرادة الانسان وامكانه القيام بالأعمال الصالحة دون تدخل النعمة ، نرى القديس يتطرف في الناحية الأخرى منكرًا وجود أي حرية تذكر لإرادة الانسان بعد السقوط .

كما نلاحظ أن كلاً من الكاثوليك والبروتستانت قد نجحوا في إثبات عقيدتهما من الكتاب المقدس ، متجاهلين آيات أخرى استخدمها الطرف الآخر . وعندما اضطرت اللاهوتيون الأرثوذكس خلال القرون الأخيرة دخول ميدان المعركة (بسبب ضغط الارشاليات) ، نسوا تقليدهم وراثتهم وأسلوبهم في الحياة والتعليم ، وسقطوا في متاهات الجدال المنطقي الغربي (سواء كان بروتستانتياً أو كاثوليكياً) الذي اعتمد على العقل ، وحول الكتاب المقدس إلى مجموعة آيات منفصلة الغرض منها إثبات عقيدة معينة ، وليس كلمة الله التي نحيا بها . (٤) وحتى مفهوم الآباء الكتابي عن السقوط والخلاص نسيناه ، واقتصرنا في دراستنا على الناحية القانونية كما فعل الغرب . وأصبحنا نحاول عبثاً أن نبحث عن موقف الكنيسة الأرثوذكسية بالنسبة للأسئلة التي ابتدعتها العقيدة الغربية : هل الخلاص بالايمان وحده ، أم بالايمان والأعمال ؟ إذا كان الخلاص قد أكمل بالصليب فما هو معنى القيامة ؟ هل الأسرار لازمة للخلاص ، ولماذا ؟ ما هي أوجه الخلاف بين ذبيحة الافخارستيا وذبيحة الصليب ؟

القديس أنثناسيوس الرسولي في كتاب تجسد الكلمة - أحدثت تغييراً في طبيعة الانسان والى وقوعه تحت سلطان الموت . بمجرد رفع حكم الموت دون تجديد طبيعة الانسان وخلقته من جديد لا يعطيه الحياة الجديدة ويظل قابلاً للموت :

«وان الفساد الذي حصل لم يكن خارج الجسد بل لصق به . وكان مطلوباً أن تلتصق به الحياة عوض الفساد ، حتى كما تمكن الموت من الجسد تتمكن منه الحياة أيضاً .. ولو كان الموت قد أبعد عن الجسد بمجرد إصدار أمر منه لبقى - رغم ذلك - قابلاً للموت والفساد حسب طبيعة الاجساد (٤٤ : ٤ - ٨) وكلام اثناسيوس هنا تعليم كتابي أصيل نراه في كلام القديس بولس الرسول «الذين هم في الجسد لا يستطيعون أن يرضوا الله» (رو ٨ : ٨) ، «من يتقذني من جسد هذا الموت ؟» (رو ٧ : ٢٤) .
تانياً : نظرية الترضية حصرت الفكر اللاهوتي في الأجيال التالية في صليب المسيح دون جميع الأوجه الأخرى لتدبير الله الخلاص بما فيها عمل الابن من تجسده إلى مجيئه الثاني ، وعمل الأب وعمل الروح القدس .

الخلاف بين الكاثوليك والبروتستانت

حول موضوع الخلاص

عندما ظهر دعاة الإصلاح البروتستاني في القرن السادس عشر ، ورثوا اللاهوت المدرسي العقلي عن الكاثوليك . واذ قبلوا نظرية الترضية وجدوا أنها لم تترك مكاناً للكثير من عقائد الكنيسة . ومادام الخلاص قد تم على الصليب فلا يوجد أي حاجة لأسرار الكنيسة ، ولا أي دور لذبيحة الافخارستيا في القداس . كما أنه لا مجال لحرية الانسان أو أعماله في موضوع خلاصه . وكان على الكنيسة الكاثوليكية أن تجيب على هذه الاعتراضات . وهذا ما فعلته في مجمع ترنت (١٥٤٥ - ١٥٦٣ م) الذي نص على أن «التبرير ليس بمجرد غفران الخطايا ، بل يشمل أيضاً التقديس وتجديد الانسان ، وذلك بقوله لعمل النعمة ومواهبها .» وعلى ضوء هذا التعريف وجد المجمع مجالاً لعمل الأسرار كواسطة لنعمة الروح القدس ، كما أمكنه أن يفسر أهمية الأعمال في الخلاص ، إذ أن الانسان يحتفظ بحالة التقديس وينمو فيها بطاعة الوصايا والأعمال الصالحة . وأكد المجمع - وهو أحد المجامع المسكونية عند الكاثوليك - أن الخلاص قد يفقد بواسطة ما دعاه «الخطية الميتة» وفي هذه الحالة يمكن استعادته ثانية بسر التوبة .

وقد رد البروتستانت على ذلك منكرين أي استحقات الأعمال الصالحة (وهو التعبير الذي أدخله المجمع) ونادوا بعقيدة الخلاص بالايمان وحده - إيمان بدون أعمال ، وبلا حاجة لأسرار الكنيسة ، وأنكروا ذبيحة القداس .

وفي التعليم البروتستاني عن الخلاص نرى الفصل التام بين كلمتين كتابيتين - التبرير والتقديس . فالتبرير الذي هو عمل قانوني بحت ، ويتم في لحظة - يروونه عمل النعمة الالهية وحدها ، وشرطه الوحيد هو الايمان (يو ٣ : ١٤ - ١٦ ، رو ٣ : ٢٢ - ٢٨ ، غلا ٣ : ١١ ، ١ بط ١ : ٩) . وهذا الايمان يتوقف على نعمة الله فقط وهو موهبة منه (أف ٢ : ٨) . أما موضوعه فهو يسوع وحده (رو ٥ : ١٧ ، ١ بط ٢ : ٤) . وليس للمعمودية ولا للأعمال الصالحة أي دور في التبرير . ففي المعمودية - لدى البروتستانت - يختل الانسان بعد تبريره ، أما الأعمال الصالحة فهي نتيجة للتبرير وعلامة للخلاص وليست شرطاً لازماً له كما علم الكاثوليك .

أما بالنسبة للتقديس (أو السيرة المقدسة) فقد علم البروتستانت أنه عمل النعمة وحدها أيضاً ، ونتيجة للخلاص ، ويعكس التبرير الذي يتم في لحظة ، فإن التقديس عملية مستمرة طوال حياة المؤمن . وقد علم جون وزلي في القرن الثامن عشر أن التبرير هو عمل المسيح ، أما التقديس فهو عمل الروح القدس .

نستطيع أن نجد عشرات من أمثال هذه الأسئلة وإذا ما قلنا كتب الآباء فلن نجد أنهم قد تعرضوا لاجابتها . واذ نحاول نحن أن نجيب عليها من الكتاب المقدس ننتهي بأننا انحزنا الى طرف أو الى آخر . بل أن المتبع عادة هو استخدام ردود كل من الطرفين لنفحم بها الآخر .

إننا نحتاج أولاً أن ندرس تقليدنا الذي تسلمناه بشيء من الجدية - الكتاب المقدس ، أقوال الآباء في القرون الأولى ، الليتورجيا . وعندئذ سوف نعرف أن هذه الأسئلة لا وجود لها ، وهي خاطئة من أساسها . (٥) أستطيع هنا فقط أن أعطي عرضاً موجزاً لتعليم الآباء الأوائل عن الخلاص :

أولاً : نظر الآباء إلى أكثر من الوجه القانوني أو القضائي للخلاص (أي غفران الخطية) . الخلاص هو عملية خلق جديدة للانسان عبر عنها الكتاب المقدس بأنها مشاركة للطبيعة الالهية (٢ بط ١ : ٤) ويلخصها القديس أثناسيوس الرسولي في كتاب تجسد الكلمة في عبارة واحدة «لقد صار الكلمة انساناً لكي نصير نحن لها» لقد فشل آدم في الوصول الى الهدف من خلقه فجاء المسيح - آدم الثاني - ليصل بالبشرية إلى هذه الغاية . «لأنه كما في آدم يموت الجميع هكذا في المسيح سيجيا الجميع» (اكو ١٥ : ٢٢) . ولا يميل أثناسيوس من أن يكرر في كتاباته كيف أن الخطية أحدثت شيئين في الانسان - تغير طبيعته ، ووقوعه تحت طائلة الموت والفساد . وبالتالي فإن عملية الخلاص يجب أن تعالج المشكلتين . وهذا ما فعله السيد المسيح بتجسده إذ غير طبيعة البشرية - خلقها من جديد - وحوها الى طبيعة غير قابلة للموت . التجسد لم يعيد الانسان إلى حالته الأولى في الجنة فقط ، بل حمله إلى رأس جديد هو المسيح وليس آدم (اكو ١٥ : ٢٢ ، ٤٥ - ٥٠) .

ثانياً : لا يحدد آباء الكنيسة عمل المسيح الخلاصي بالصليب . ونرى ذلك كثيراً وعلى الأخص في كتابات القديس أثناسيوس والقديس غريغوريوس الناطق بالالهيات . فالخلاص هو عمل الابن الكلمة وهو في حضن الآب منذ الأزل (١ بط ٢٠) وفي تجسده والحبل به (عب ١ : ٦ ، ١٠ : ٥) ومعموديته من يوحنا وصلبه وقيامته ومجيئه الثاني . اكتفي هنا بكلمات القديس غريغوريوس في القداس الالهي : «وباركت طبيعتي فيك» للدلالة على البركة التي أخذتها البشرية بمجرد تجسد ابن الله وأخذه لطبيعتنا . وبكلمات القديس أثناسيوس في «تجسد الكلمة» (٩ : ٤) :

«كما أنه أن دخل ملك عظيم مدينة عظيمة واتخذ إقامته في أحد بيوتها فإن هذه المدينة تنتشع بالمجد والشرف .. كذلك مع ملك الكل إذ أتى الى عالمنا واتخذ إقامته في جسد واحد بين أتراكه . فقد بطلت كل مؤامرة العدو ضد الجنس البشري منذ ذلك الحين .»

وهذا تعليم كتابي صريح نراه على الأخص في الرسالة الى العبرانيين - وهي التي كشفت لنا الكثير عن أهداف التجسد وعن أبعاد ذبيحة الصليب ، والتي أصرت على أن المسيح قد قتل بالآلام (عب ٢ : ١٠ ، ٥ : ٩ ، ٩ : ٩) إلا أن عمله الفدائي لم يكمل إلا بصعوده ليجلس عن يمين الآب بطبيعتنا البشرية (عب ٤ : ١٤ ، ٦ : ١٩ ، ٢٠ ، ٩ : ١٢ ، ٢٤ ، ١٠ : ١٢ ، ١٢ : ٢) ومجيئه الثاني . (عب ٩ : ٢٨ راجع أيضاً رو ١٣ : ١١ ، ١ بط ١ : ٥) وتصر هذه الرسالة على أن المسيح وهو رئيس خلاصنا (عب ٢ : ١٠ ، ٩ : ١٢ ، ٢) دخل إلى السماء كسابق لأجلنا (عب ١٩ : ٢٠) .

ثالثاً : ولا يقصر الآباء التدبير الالهي لخلاص الانسان على أقنوم الابن . لأن تعليم الكتاب المقدس الواضح أن الخلاص هو عمل الآب وعمل الروح القدس أيضاً ، ولا يقتصر على عملية الفداء (التي تسمى تدبير الابن) . فخلاصنا هو مشيئة الآب السماوي التي جاء المسيح لينفذها (يو ٤ : ٣٤ ، ٥ : ٣٠ ، ٦ : ٣٨ ، عب ١ : ١ ، ٣ : ١ - ٦ ، ٤ : ٥ ، ٨ : ٢ ، ١٠ : ٥ - ٧) وللآب دور ايجابي في هذا التنفيذ (لو ٢٣ : ٤٦ ، أع ٣ : ٢٦ ، عب ١٣ : ٢٠) . وعمل المسيح الخلاصي هو في نزوله من السماء ليعود ومعه البشرية وهو عمل لن ينتهي إلا عندما يصير الله الكل وفي الكل (اكو ١٥ : ٢٨) . أما عمل الروح القدس فهو تقديس الانسان ونموه في العلاقة بالله إلى أن يصل الى الاتحاد به . والتقديس جزء لا يتجزأ من الخلاص ، وعمل لم يكن ممكناً إلا بالفداء . فالروح القدس لم يحل على البشرية إلا بعد صعود المسيح بجسده أو كما يقول اثناسيوس في مقاله ضد الأريوسيين «الكلمة اتخذ جسداً لكي ننال نحن الروح القدس . الروح القدس هو الذي يكمل عمل المسيح الفدائي ، ويوصل شركة اللاهوت لكل شخص ، إلى أن نصل في النهاية إلى التحقيق الكامل للخلاص حين يكون «الله الكل في الكل» . الطريق إلى محبة الله الآن نسلكه - حسب تعبير القديس أثناسيوس في العبارة الاخيرة لكتاب تجسد الكلمة «بالمسيح وفيه ومعه في الروح القدس» (١)

رابعاً : بحث الآباء موضوع الخلاص الفردي : لقد أخذ الرب طبيعتنا الساقطة ، وفي جسده دان الخطية ، وقهر الموت ، وصعد الى السموات وجلس - بالطبيعة البشرية التي أصبحت طبيعة واحدة مع لاهوته - جلس بها عن يمين الآب ، المكان الذي تحدث عنه ليلة صليبه «أنا أمضي لأعد لكم مكاناً وان مضيت وأعددت لكم مكاناً آتي أيضاً وأخذكم .» (يو ١٤ : ٢ ، ٣) وهو هنا لا يتحدث عن مجيئه الثاني لأن بولس الرسول يقول - وهو لا يزال في الجسد - أنه «أقامنا معه وأجلسنا معه في السماويات» (أف ٢ : ٦) هذا هو الخلاص الذي ناله المسيحيون في كل زمان ومكان .. ولكن كيف نالوه ؟

لقد رأينا كيف أن القديس أوغسطينوس في القرن الخامس - وتبعه قادة البروتستانت في القرن السادس عشر - قد أصر على أن الخلاص هو عمل النعمة وحدها ، ويناله كل واحد بالايمان . أما الكاثوليك في مجمع ترنت فقد أضافوا شروطاً أخرى لهذا الخلاص الالهي والتبرير المجاني (رو ٣ : ٢٤) - وهي الأسرار (كوسائل للنعمة) والأعمال الصالحة . أين هذا من كلام أثناسيوس «الروح القدس يكمل عمل المسيح الفدائي ويوصل شركة اللاهوت لكل شخص» ؟ هذا هو التعليم الآبائي السليم المبني على الكتاب المقدس والذي لا يفصل عمل الروح القدس عن عمل المسيح «لأنه يأخذ مما لي ويخبركم» (يو ١٦ : ١٤) لأن خارج المسيح الممجد عن يمين الآب لا يوجد خلاص ، ولا يوجد طريق إلى قدس الأقداس السماوي خارج جسده الالهي «طريقاً كرسه لنا حديثاً حياً بالحجاب أي جسده» (عب ١٠ : ٢٠) . الروح القدس هو الذي يجعل البشرية جسداً واحداً مع المسيح ، ويجعل كل مؤمن عضواً في هذا الجسد (أف ٥ : ٢٥ - ٣٢) هذا لا يتم بمجرد الايمان بل بعمل الروح القدس في المعمودية ، حسب تعليم الكتاب «لأننا جميعنا بروح واحد أيضاً اعتمدنا إلى جسد واحد .» (اكو ١٢ : ١٣) . في المعمودية يشترك المؤمن مع المسيح في موته وقيامته :

«أم تجهلون أن كل من اعتمد ليسوع المسيح اعتمدنا موته ، فدنا معه بالمعمودية للموت ..» (رو ٦ : ٣ ، ٤)

— مدفونين معه في المعمودية التي فيها أقمتم أيضاً معه » (كو ١٢ : ٢) .

ملاحظات

- (١) نحمد الكلمة للقديس أناسيوس الرسولي . ترجمة القمص مرقس داوود ٦ : ٩-٤ .
- (٢) نلاحظ في كل من هذه النظريات استنادها إلى آية واحدة من الكتاب أخذت في غير معناها ، كما نلاحظ تعارضها الصريح مع تعليم الكتاب بوجه عام في أمكنة عديدة . كما نلاحظ دخول بعض هذه التفسيرات في كنيستنا . وقد أشارت مجلة الكرازة منذ عدة سنوات إلى الخطأ اللاهوتي الموجود في ميمر العبد الملوك الذي يقرأ في بعض الكنائس يوم الجمعة العظيمة .
- (٣) عن تشارلس ماكنتوش في شرح الخروج - إصحاح ١٢ ، ١٣ .
- (٤) راجع مقال : اللاهوت المدرسي وقصة دخوله إلى الكنيسة (الرسالة ٩ : ٥) يونيه (١٩٩٠) .
- (٥) خلال النصف الأخير من هذا القرن قام كثيرون من اللاهوتيين وعلماء الكتاب المقدس والمتخصصين في دراسات الآباء من مختلف الكنائس في الغرب بدراسة هذا التقليد فأصبحت كتاباتهم تعبر عن روح الكنيسة الأولى . وبذلك سبقونا في هذا المضمار ، وجعلوا تعليم الكنيسة الأولى متاحاً للجميع .
- (٦) نلاحظ أن القديس أناسيوس الرسولي قد استخدم في تعبيره عن عمل المسيح الخلاصي ثلاثة من حروف الجر اليونانية ، وكل منها له دلالة لاهوتية عميقة تنضح من طريقة استخدامها في الكتاب المقدس :
- أ - فخلاصنا هو بالمسيح (Through ...) أي بواسطة عمله الفدائي لأجلنا (رو ٣ : ٢٤ ، ١ كو ١ : ٣٠ ، ١٤ : ١) .
- ب - وخلصنا في المسيح (in) الذي دخل الأقداس كمثل وسابق للبشرية (اكو ١٥ : ٢٢ ، ٢ كو ٥ : ٢١ ، غلا ٢ : ١٧) ، كو ٢ : ١٠ ، ٢ تي ٢ : ١٠) كما أننا صرنا خليفة جديدة في المسيح في المعمودية (٢ كو ٥ : ١٧ ، غلا ٦ : ١٥ ، أف ٢ : ١٠) .
- ج - وخلصنا مع المسيح (with) نموت معه ونقوم معه (رو ٦ : ٣-٦ ، ٦ كو ٢ : ١٢ ، ٢٠ ، ١ : ٣-٣) ونجلس معه في السماويات (أف ٢ : ٦) - هذا الأخير هو الخلاص الفردي الذي يكمله الرب في حياة كل مؤمن ، وهو ما نتأمل فيه في بقية هذا المقال .
- (٧) لم يكن خطأ اللاهوتيين المدرسين في الصور الوسطى هو تعليمهم بلزوم الأسرار وضرورتها للخلاص ، بل كان في فصلهم الأسرار عن عمل الله الخلاصي وجعلها شروطاً مستقلة ومضافة لهذا العمل .
- (٨) Lev Gillet: Orthodox Spirituality, P.23
- (٩) هذه العبارة «باران آتي» . التي جاءت في ختام بعض أسفار العهد الجديد (اكو ١٦ : ٢٢ ، رؤ ٢٢ : ٢٠) . كان يجتمعت بها القديس في القرن الأولي إذ نراها في الديدك (تعاليم الرسل) كما نراها في عدد من القداست القديمة .

Society of Coptic Church Studies
P. O. Box 714
E. Brunswick, NJ 08816

Non Profit Org.
U. S. Postage
PAID
Lebanon, Pa. 17042
Permit No. 56

المعمودية هي القيامة الأولى التي يبدأ بها المؤمنون حياتهم الروحية فينفقد الموت سلطانه عليهم ويصيرون كهنة لله والمسيح ويملكون معه (رؤ ٢٠ : ٤-٦) . إلا أن المعمودية ليست سوى بداية الطريق الذي إذا لم نسلك فيه بأمانة قد تفقد الخلاص الذي نلناه بالمعمودية (مر ١٦ : ١٦ ، تيطس ٣ : ٥ ، ١ بط ٣ : ٢١) في هذا الطريق الذي يشمل الحياة كلها يستمر عمل الروح القدس فينا ، الحياة الروحية هي حياة في المسيح وبقيادة الروح القدس ، الروح القدس لا يعمل في فراغ بل في قلب الانسان . هناك نوع من التعاون Synergia (اكو ٣ : ٩) بين الانسان والنعمة الالهية . ولكن ليس معنى ذلك أن الانسان يشترك مع الله في عملية الخلاص . دور الانسان يقتصر على تقديم ارادته الحرة لله ليعمل فيه ، هو فتح الباب ليدخل الرب (رؤ ٣ : ٢٠) . هو رفع الحجر ليقوم الرب بإحياء جسده المائت . النعمة لا تفرض نفسها على الانسان ولا تقوم وحدها بالعمل . الله يريد أن يجمع الناس بخلصهم ، وعمله الخلاصي كاف وقادر على تخلص الجميع ، ولا يعطل ذلك سوى إرادة الانسان . لأن خلاص كل فرد واتحاده بالمسيح - كما عبر أحد اللاهوتيين الارثوذكسيين - يستدعي تعاون قوتين غير متكافئتين إلا أن كلا منهما لازم وهما النعمة الالهية والارادة الانسانية . (٨)

وعمل الروح القدس في قلب المؤمن لا يقيد إذ شبهه الرب بالريح التي تهب حيث تشاء . إلا أن عمله يتجل بصفة عامة ومتاحة للجميع في التأمل في كلمة الله (أع - ١٠ : ٤٤) ، وفي الاسرار الكنسية وعلى رأسها الافخارستيا التي في كل مرة فيها نعيش بالفعل ونشارك الخلاص الذي صنعه الرب في تجسده وصلبه وموته وقيامته وبجيشه الثاني (اكو ١١ : ٢٦) . الافخارستيا هي عرس الحمل الذي فيه تتحد الكنيسة وكل نفس فيها بعريسها السماوي ، وتنال أجسادنا فيها عربون القيامة باتحادها بجسد المسيح الذي انتصر على الموت بقيامته (يو ٦ : ٥٣ ، ٥٤) .

هذه الحياة التي نحياها في الروح القدس تبدو مظاهرها وثمارها الطبيعية في الفضائل المسيحية (غلا ٥ : ٢٢) ، وفي حياة التأمل والصلاة ، وفي حياة الخدمة .

وبهذا نرى في وضوح الخلاص كخيوط ذهبي يربط للكتاب المقدس من بدايته إلى نهايته ، كما يربطه بالحياة الليتورجية في الكنيسة . بدايته إلى نهايته) . لقد حقق الرب الخلاص بتجسده ، ونلنا عربونه بقيامة نفوسنا في المعمودية حيث أخذنا عطية الروح القدس الذي يعين ضعفائنا باستمرار (رو ٨ : ٢٦) . بينما أخذنا أجسادنا قوة القيامة باتحادها بجسد الرب في الأفخارستيا في انتظار ظهوره الثاني للخلاص للذين ينتظرونه (عب ٩ : ٢٨) . هذا الخلاص نعيشه في الافخارستيا عندما يأتي الرب في ربوات قديسيه . واذ يدعونا الروح القدس والكنيسة للتناول «الروح والعروس يقولان تعال من يسمع فليقل تعال . ومن يعطش فليأت . ومن يرد فليأخذ ماء حياة مجاناً» ، يجيب كل مؤمن «أمين ، تعال أيها الرب يسوع» (٩) (رؤ ٢٢ : ١٧ ، ٢٠) .

دكتور رودلف بيني